مقياس الشباب

للأستاذ أحمد أمين

أما الأطباء وعلماء الأحصاء فيقدرون الشباب بالسن ، فمن بلغت سنه العشرين أو قبل ذلك قليلا أو بعد ذلك بسنين فشاب وإلا فلا ؛ فتحديد السن هو مقياس الشباب ، كما هو مقياس الطفولة والهرم ، فان شئت أن تعرف المخلوق أطفل هو أم شاب أم شيخ فأغمض عينك وعدّ السنين ، ولا تنظر إلى قوة أو ضعف ، ولا إلى صحة أو مرض

وسار على هذا النمط علماء اللغة ، فقالوا : ما دام الانسان فى الرحم فهو جنين ، فاذا ولد فهو وليد ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع ، ثم إذا قطع عن اللبن فهو فطيم ، فاذا كاد يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو ناشئ ، فاذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق ، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم هو كهل إلى الستين

ولكن هناك شاعرا أراد أن يخرج على هذه التقاليد ، وأراد أن يقيس الشباب والفتوة بالمعنى لا بالمبنى ، وبالقوة لا بالسن ، فقال :

ياعزُّ هل لكِ فى شيخ فتًى أبدا ... وقد يكون شبابٌ غيرُ فِتيانِ ؟

فهو لا يريد أن يعترف بأقوال الأحصائيين ، ولا أقوال اللغويين ، فقد يسمى الشيخ شاباً متى حاز صفات الشباب ، وقد يسمى الشاب شيخاً إذا حاز صفات الشيوخ ، فالعبرة عنده فى التسمية الصفة لا السن ، وهى من غير شك نظرة جريئة ومذهب جديد ينظر فيه إلى الكيف لا إلى الكم ، وإلى النتائج لا إلى المقدمات ، وإلى الغاية لا إلى الوسيلة ؛ فاذا عرضتَ عليه رجلا قد ناهز الستين أو جاوزها ، قد لبس فى حياته العمائم الثلاث : السوداء ثم الشمطاء ثم البيضاء ؛ وعرضت بجانبه من يسمونه شاباً ، لم يلبس فى حياته إلا العمامة الأولى . ثم سألت صاحب هذا المذهب : ما قولك دام فضلك فى هذين ؟ هذا أربى على الستين ، وهذا فى سن العشرين . فأيهما الشاب ، وأيهما الشيخ ؟ لم يستخف سؤالك ، ولم يعده بديهية من البديهيات ، بل عده مجالاً للنظر الطويل والتفكير العميق ، وقال : ليس الأمر بالسن أيها السائل ، فمن رأيته منهما متهدماً قد نضب ماؤه ، وذهب رواؤه ، وذوى عودُه ، وخَوَى عمودُه ، ورق جلده ، وانخرع متنه ، وحطمته اللذات ، وأنهكت قوته الشهوات ، حتى صار لا يحمل بعضه بعضاً ، فهو الشيخ وإن كان ابن العشرين ؛ ومن امتلأ قوة ، وبلغ كمال البنية ، واستوت قامته ، واعتدل غصنه ، وحفظت جدته ، وأحكمت مِرّته ، وتجلت رجولته ، واكتمل نشاطه ، فهو الشاب ولو جاوز الستين . إنما يلجأ إلى السن فى تحديد الشباب والشيخوخة من قصُرَ نظره ، وضعفت قوة حكمه ، وأراد أن يعالج الأمر من أسهل طرقه ؛ وأقرب مسالكه ، وذلك شأن الغر الأبله ، لا الفيلسوف الحكيم ، ولم كنا إذا قسنا العلم وقسنا الكفاية ، وقسنا الخلق والصلاحية للأعمال لم نرجع فى شىء من ذلك إلى السن ، وإذا قسنا الشباب والشيخوخة رجعنا إلى السن ؟ ليست السن مقياس الشباب ، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب ، وقد تتخلف العلامة كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة الليسانس فى الآداب أو الليسانس فى الحقوق ، وقد يكون معه الليسانس أو الدكتوراه وليس بعالم ، كما يكون فى سن العشرين وليس بشاب . إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة ، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة ، والمعنى يقاس بمعنى . فنحن نقيس الحجرة المادية بالمتر المادى ، ونكيل القمح المادى بكيلة مادية ، ونزن التفاح المادي برطل مادى ، ولكن من السخف بمكان أن نقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمتر أو رطل أو قدح ، فلم نقيس الشباب وهو معنى بالسن وهى مادة ؟

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هى المقياس الصحيح للشباب ، إنما الشباب مزاج ، هو محصّل لمجموع قوى نفسية ، هو حاصل جمع لصفات خلقية ، إن شئت فقل هو الارادة قوية تعزم العزم لا رجوع فيه ، وتزمع الأمر لا محيد عنه ، وترى الى الغرض لاسبيل إلا اليه ، تعترض الصعابُ فلا تأبه لها ، وتخر السماء على الأرض فلا تتحوّل عنه ؛ قد تعترف بأن هناك عقبة ، ولكن لا تعترف بعقبة كؤود ؛ وقد تعر بصعوبة الامر ، ولكن

باستحالته — والشباب هو العاطفة القوية المتحمسة الصحيحة ، ومظاهر صحتها أنها ثابتة فلست « قشاً » تشتعل سريعاً وتخمد سريعاً ، وليست مضطربة تذهب مرة يمينا ومرة يسارا من غير غرض يحدد اتجاهها ، وليست مائعة تحب فتذوب فى الحب ، وتغضب فتجن فى الغضب ، إنما ألجمها بعض الالجام العقل والمصلحة والغرض — والشباب هو الخيال الخصب الواسع الأفق المترامى الأطراف الذى يرسم الأمل ويبعث على الطموح ، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمته حياة خيرا من حياتها الواقعية — هذا المزاج الذى يتجمع من إرادة قوية وعاطفة حية وخيال خصب هو الشباب ، وبمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب ، وبمقدار نقصها تكون الشيخوخة ، فالشباب موجب والشيخوخة سالبة ، والشباب اقدام والشيخوخة احجام ، والشباب نصرة والشيخوخة هزيمة

وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فان لنا علامات أخرى على تفسيرنا الصحيح

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الأمارات ، فسواد الشباب وبياض المشيب أكثر ما دار عليه القول فى الشيخوخة والشباب ، وهو مركز القول فى ذلك عند الأدباء والشعراء ، حتى ألفوا فى ذلك الكتب الخاصة من أشهرها كتاب « الشهاب فى الشيب والشباب » جمع فيه الشريف المرتضى تسعة وثلاثين بيتاً فى الشيب لأبى تمام ، ومائة وأربعين للبحترى ، وثلثمائة وأربعة عشر للشريف الرضى ، وأربعمائة وثلاثة وستين للمرتضى ، وستة وأربعين لابن الرومى . وقد التفت مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته إلى فكرة جليلة ، ولكنه لم يحسن تعليلها ، قال : « إن الاغراق فى وصف الشيب والاكثار فى معانيه ، واستيفاء القول فيه ، لا يكاد يوجد فى الشعر القديم ، وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة ، فكانت مما لا نظير له ، وإنما أطنب فى أوصافه واستخراج دقائقه والولوج إلى شعابه الشعراء المحدثون »

وعلة ذلك فى نظرى أن الحياة فى الجاهلية وصدر الاسلام لم تكن غالية ، كانت تتطلب المجد وتسترخص الموت ، غير أن المجد فى الجاهلية كان مجد الذكر وحسن الأحدوثة والخوف من العار واتباع التقاليد ، وكان فى الاسلام ذلك ، وعند بعضهم الاستشهاد فى سبيل الدعوة وبيع النفوس لله برضاء وجنته ، فليست الحياة تستحق البكاء الطويل عليها . أما فى العصر العباسى فكانت أشبه بحياة الرومانيين ؛ من أهم أغراضها اللهو واللعب ، ومن أهم أغراضها القرب إلى النساء والتحبب اليهن ، وذلك يستدعى حب الحياة ؛ فنذير الموت وهو الشيب بغيض إلى النفس ، والنساء يكرهن الشيب فيجب أن يكره ، ويعيرن به فيجب أن يبكى ، ويمدحن الشباب ويحببنه فيجب أن يرثى . لهذا كثر القول فى الشيب فى العصر العباسى وما بعده ، وقل فيما قبله

أما علامات الشباب والشيخوخة فى نظريتنا : فليس موضعها الرأس ، إنما موضعها القلب ، فاليائس شيخ لأن اليأس ضعف فى الارادة وضيق فى الخيال ، وبرودة فى العاطفة ، والشيب شيب القلب لا شيب الرأس ، فمن لم ينفعل لمواضع الانفعال ، ولم يعجب لمواضع الاعجاب ، ولم يستكره فى مواضع الاستكراه ، ولم ينازل فى مواضع الكفاح ، ولم يطرب للموسيقى الجميلة والمنظر الجميل ، ولم يهتج للأحداث ، ولم يأمل ولم يطمح ، فهو شيخ أى شيخ ، شاب قلبه ، وإن كان أسود الرأس حالكه

إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب ، فسائل قلبك لا رأسك ، هل ينبض بالحب : حب الجمال ، وحب الطبيعة ، وحب الفضيلة ، وحب الانسانية ، وهل ينفعل لذلك انفعالاً قوياً فيهيم ويغار ويدافع ويضحى ؟ هل يتصل قلبه بالعالم فيتلقى أمواجه الأثيرية من الناس ، ومن الأرض ، ومن البحر ، ومن الجبل ، ومن السماء . ثم يلقى بأشعته — كما تلقى — على كل من حوله ، فينفعل ويفعل ، ويتأثر ويؤثر ؛ فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياء وهاجا ويعكسه على الأرض نوراً وضاء ؟ هل يبادل من حوله حباً بحب ، وعاطفة بعاطفة ، وخيراً بخير ، وأحياناً شراً بشر ؟ وهل يترك العالم خيراً مما تسلمه ؟ أو أن قلبه بارد كالثلج ، جامد كالصخر ، لا طعم له كالماء ، ميت كالجماد ، مغلف كالخرشوف ؟

إن كان الثانى فشيخ ، وإن كان الأول فشاب

قالت كبرت وشبت قلت لها

هذا غبار وقائع الدهر

أحمد أمين